

التعويض والتبرير عند الأطفال..

مرضان نفسيان

ما هما وكيف نعالجهما؟

شهاب الدين الحسيني

التعويض

التعويض أحد وسائل علاج الصراع النفسي، وهو متصل بجهد الطفل للتخلص من الشعور بالضعف أو إضاعة احترام الذات التي تولد الصراع النفسي، فيقوم الطفل ببعض الأعمال والممارسات يعوض من خلالها ما فقده في الواقع من تحقيق رغبة أو أمنية، فينمّي أحد صفاته ليعوض عن صفاته غير الحميدة، أو يعوض فشله بالنجاح في مجال آخر، فالطفل الفاشل في الدراسة يعوض عن فشله بالنجاح في الرياضة أو الفن، والطفل غير الجميل يعوّض عن هذه الصفة بلطف الحديث، وحسن المعاملة، وقد يبالغ البعض في التعويض إلى أن يصل إلى مراتب عليا في المجتمع، ومن أمثلة هؤلاء (روزفلت، وهيلين كيلر.. ونابليون)^(١) حيث أصبحوا من الشخصيات المرموقة.

وقد يتجاوز البعض التعويض فيقومون بأعمال خطيرة وبهلوانيات تؤدي إلى وفاتهم، والتعويض الزائد أمر مذموم، إن أدى إلى القضاء على الشخص. وهناك تعويض سلبي، فالطفل الذي يشعر بالإحباط وعدم النجاح في الواقع، قد يلجأ أحياناً إلى القيام بممارسات خاطئة وسلبية، كالمشاكسة في البيت أو المدرسة أو الشارع لجذب الانتباه إليه، ولكي يصفه الآخرون بأنه لا يهاب أحداً، ولذا نجد أن البعض يفتخر بمثل هذه المشاكسة، وخير مثال على ذلك، ما نجده في مجتمعاتنا حيث نرى بعض الأحداث المولعين بالتشاجر والاعتداء لأدنى سبب، ولكن إذا درسنا الحالة النفسية لهؤلاء لوجدناهم أناساً طبيين في كثير من خصائصهم، ولكنهم التجأوا إلى هذا الأسلوب العنيف للتعويض عن الإحباطات التي صحبتهم.

١. علم النفس، لفاخر عاقل، ص ٢٣٤.

وقد يلجأ البعض إلى التكبر ليشعر أنه متفوق على أقرانه، ويتفاخر ببطولات وهمية أو خصائص غير موجودة فيه، ليعوض عن حرمانه وضعف نفسه، قال الإمام جعفر الصادق: (ع) "ما من رجل تكبر أو تجبر إلا لذلة وجدها في نفسه"^(١).

ويقوم البعض بالاستهزاء والسخرية من الآخرين للتعويض عن شعورهم بالنقص، ويلتجئ آخرون إلى التمسك بقاعدة "خالف تعرف"، فيخالفون القواعد العامة للسلوك أو للعادات والتقاليد، لكي يشار إليهم بالبنان.

والتعويض السلبي ظاهرة خطيرة إن تعدت مرحلة الطفولة لتترافق الشخص في جميع مراحل الحياة، لأنها قد تجعل منه إنساناً ضاراً بالمجتمع، وخصوصاً إن تهيأت له الظروف ووصل إلى موقع سياسي أو عسكري في المجتمع، فإنه سيصبح دكتاتوراً يحكم المجتمع بالحديد والنار، ليصب جام غضبه على المجتمع الذي لم يحصل فيه على الهناء والسعادة في طفولته.

ومن أجل سلامة الأفراد وسلامة المجتمع يجب على الوالدين أو المربين تشجيع الطفل للتغلب على آلامه ومعاناته، والتغلب على ضعفه، ومساعدته على إبراز أفضل خصائصه المحمودة أو المقبولة اجتماعياً ليعوض عما فقده من رغبات وأمنيات؛ ليصبح الضعف طريقاً للقوة.

والتعويض الإيجابي ضروري في بناء المجتمع، لأنه ينمي ظاهرة التخصص في مجالات الحياة المختلفة، فالذي يفشل في جانب يجد نفسه أمام مجالات أخرى تحقق له النجاح، وأحياناً قد يلجأ الإنسان إلى تحسين سلوكه وأخلاقه ليعوض عن بعض أنواع الحرمان، ويقوم آخر بتأسيس مشاريع البر والإحسان، ولذا فالتعويض الإيجابي ضروري للفرد وللمجتمع، ومن واجب الوالدين مراقبة هذه الظاهرة مراقبة دقيقة لتحويل الضعف إلى قوة، والصراع النفسي إلى استقرار وطمأنينة.

التبرير

حينما يعجز الطفل عن أداء دوره، وإنجاز عمله، أو إشباع حاجاته ورغباته، ويفقد التبريرات المنطقية والواقعية لهذا العجز، فإنه يلتجئ إلى التبرير المخالف للواقع، والتبرير ظاهرة يراد بها الاحتفاظ بالتقدير الذاتي، وهو يشتمل على خداع الذات وخداع الآخرين، فالطفل الذي يفشل في الامتحان أو لا يحصل على الدرجة التي يريدتها الوالدان، فإنه يبرر فشله بأن المعلم ليس جيداً في التعليم، أو أنه يعادي الطلاب فيضع أسئلة صعبة، أو أنه أتى بأسئلة غير مألوفة، والطفل الذي يتهرب من الدراسة يدعي أنه بحاجة إلى الراحة والترفيه لكي يعود إلى نشاطه الأول.

والطفل الذي لا يرغب في مصاحبة أحد والديه إلى بيت أقرانه أو جيرانه بسبب كراهيته للطفل في ذلك البيت، يبرر عدم رغبته بأنه تعب أو يريد أن ينام أو أن الجو بارد ويخشى الإصابة بالزكام، والطفل الذي يحب الوحدة والانفراد يبرر عدم اشتراكه في اللعب مع بقية الأفراد بأنهم غير مهذبين.

١. الكافي: ٣١٢/٢.

والتبرير وإن كان كذباً وخداعاً للذات وللآخرين، إلا أنه يخفف من المعاناة النفسية تخفيفاً جزئياً مؤقتاً، فيصون به الطفل ماء وجهه أمام الآخرين، ومع هذا التخفيف يبقى الإنسان في دوامة من الصراع النفسي إن بقيت معاناته دون حل ودون علاج.

ومنشأ التبرير هو خيال الطفولة الخصب، وهو اقتباس واكتساب من الوالدين أو من غيرهما، فحينما يسمع الطفل التبريرات المتكررة بأن استخدام الشيء الفلاني يجعله مريضاً، أو أن اللعب بمثل هذا الشيء مبعوض لدى الناس، أو أن صاحب الدكان الفلاني قد عطّل عمله هذا اليوم، فجميع تلك التبريرات تجعله يتقن فنونها وأساليبها، فيلجأ إلى التبرير عند فشله أو عند معاكسة رغباته.

والتبرير أحد مصاديق الكذب، والذي يلجأ إليه سيتحول إلى كذاب عن طريق الممارسة المتكررة، والتبرير يؤدي إلى عدم الاكتراث في إنجاز الأعمال وعدم الاهتمام بمعالجة الأمور معالجة صحيحة، وهو يلحق الضرر بالفرد وبغيره، ولا يحقق الصحة النفسية إلا وقتياً، سرعان ما يعود المبرر إلى واقع الصراع النفسي الذي يعيشه.

فيجب على الوالدين أن يبذلا قصارى جهودهما للقضاء على هذه الظاهرة بأن يكونا قدوة للطفل، وأن يصارحاه دون اللجوء إلى التبرير، ويجب تشجيع الطفل على الاعتراف بأخطائه وتقصيراته، ومساعدته على المعالجة، ويجب على الوالدين عدم تحميل الطفل فوق طاقته العقلية والبدنية، فبعض الوالدين لا يقبلون من الطفل إلا أن ينجز العمل الفلاني مئة بالمئة، أو أن يكون الأول في الامتحان أو الرياضة أو غير ذلك، وهذا خطأ كبير، وخصوصاً إذا كان الطفل لا يتصف بالمؤهلات اللازمة للنجاح، مما يدفعه إلى التبرير.

ولا ينتهي التبرير إلا بإنهاء أسبابه، والانفتاح على عالم الطفل ومصارحته بالحقائق ليتعرف على تقصيراته أو يعترف بها، ليحول الضعف إلى قوة، ولا يلجأ بعد ذلك إلى التبرير في علاج معاناته وهمومه وصراعه النفسي.

